التجديد في التفسير عند الأستاذ محمد عبده

محفوظ رحماني•

الملخص :
التجديد هو التعامل مع الكتاب و السنة و استيحاء ما بهما من مبادئ عامة لوضع القواعد التي تنظم المجتمع الإسلامي و تستجيب لحاجات أفراده المتجددة. والتجديد الذي دعا إليه محمد عبده هو ذلك النهج الذي يحفظ للكتاب و السنة قدسيتهما مع عدم الجمود على القديم، ولهذا ركز في تفسيره على الجانب الإصلاحي الاجتماعي لأن القرآن كتاب هداية. كما أقام إصلاحه على الدعوة إلى أصول تفكيرنا الأولى، والعمل على إعادة فهمها بمناهج جديدة و إعادة صياغة المحتوى بما يتناسب مع مشكلات العصر والبيئة الفكرية المستجدة.
الكلمات المفتاحية : التجديد ، محمد عبده ، الإصلاح ، القرآن .

Resumé

The Renewal in Interpretation of the Scholar Mohamed Abdou

The renewal is to deal with the Holy Book ‘ Quran’ and ‘ Sunnah’ , get inspired by basic principles to set up rules governing Islamic society; and meets the constant renewable needs. The renewal, that was advocated by Mohamed Abdou, is the approach which preserves the Holiness of the Holy Book ‘ Quran’ and ‘Sunnah’ without stagnation; therefore, he focused on social reforms in his interpretations since Quran is the Book of guidance. His reforms rested on the call for background thoughts, by revisiting them with new approaches, and reformulating their substance to cope with contemporary issues and emerging thoughts
Key words: the renewal, Mohamed Abdou, reforms, Quran. .

تقديم:

بعث الله محمدا ﷺ إلى الناس كافة، فكانت بعثته ميلادا جديدا للبشرية،وبداية عهد جديد من الرشد والاكتمال،فقد أعاد الإسلام الإنسان إلى فطرته السليمة،وحرّر عقله،وفتح المجال أمامه واسعا ليفكر ويتدبر،فيبدع ويعمر الأرض. واستطاع المسلمون أن يقيموا حضارة باسقة البنيان،امتدت في الزمان والمكان، واستخدموا عقولهم بهداية من الوحي في

• محفوظ رحماني،استاذ مساعد أ،جامعة تلمسان

إبداع العلوم،وتأسيس أصول الاجتهاد والنظر ومجابهة الأفكار الوافدة،فقامت مدارس في الفقه والتفسير وفي العقيدة والحديث. وقد كان عمدتهم في هذا التحول الحضاري القرآن الكريم،الكتاب الذي لم يحظ كتاب مثله بما حظي به من العناية والاهتمام والدراسة،ولم يقدّر لكتاب أي يثير من الاجتهاد والتفسير بقدر ما أثار هذا الكتاب العظيم،ولا أدل على ذلك من الكم الهائل الذي كتب حول القرآن.

إن القرآن الكريم كتاب معجز يواكب الحضارات،بل يمهد لها ويمنحها اتزانها،ورؤيتها الشمولية،فالقرآن معين لا ينضب،وبقدرته المتجددة على العطاء،يحمّل كل جيل مسؤولية الهداية به وتجديد الفهم له بقدر ما تتيحه طاقته العلمية.

والأمة الإسلامية تراوحت في تاريخها الطويل بين الصعود والهبوط بقدر صلتها بالقرآن فهمًا وممارسة،فقد قادت البشرية سبعة قرون،ثم بدأت في الهبوط إلى أن انتهت إلى حالة من الانحطاط الفكري والغياب الحضاري،تعيش ألوانا من التخلف والتفرق،مستعبدة من غيرها،أما الدين فلكثرة ما ران عليه مما ليس منه،فقد روحه،وسلطانه على النفوس.

فالعالم الإسلامي في القرون الثلاثة الأخيرة،بات يعيش على هامش التاريخ،جامدا على القديم،مكتفيا باجترار إبداع السابقين،عاجزا عن التجديد،وقد أغلق باب الاجتهاد والإبداع وأعلن استقالة العقل.

وفي المقابل كانت الحضارة الغربية تنهض، وتؤسس لفكر جديد وحضارة جديدة،حضارة قائمة على العقل، والعقل وحده، متنكرة للدين، تعلن القطيعة مع التراث،وكان الافتتان بالعقل مدخلا واسعا لنشوء فلسفات مادية جامحة،مغرقة في الشهوات،وكان من نتائج قيام هذه الحضارة الهيمنة على الآخر وتدميره ونفيه،هذه الهيمنة أفضت إلى استعمار البلاد الإسلامية،الاستعمار الغربي الذي جاء إلى البلاد الإسلامية يبشر بنهضة عظيمة في بلادنا،وعمل على إيهام الناس أن حالة العالم الإسلامي تشبه أوروبا في العصور الوسطى، ولن ينهض إلا بما نهضت به أوروبا.

وأمام هذا الوافد الجديد الحضارة الغربية انقسم الناس إلى ثلاثة اتجاهات وهي:

الاتجاه الأول: اتجاه انبهر بالحضارة الغربية، وفتن بها ويدعو إلى الأخذ بكل ما جاءت به، حتى وان تعارض مع أصول الإسلام.

الاتجاه الثاني: اتجاه رفض الحضارة الغربية ويرى أنها شر لا خير فيه.

الاتجاه الثالث: اتجاه وقف وسطا بين الاتجاهين السابقين فلم يرفض الحضارة الغربية جملة،ولم يقبلها كلها، وإنما يرى أن فيها ما يقبل وفيها ما يرد.

ومن الاتجاهين الأخيرين تشكلت تيارات اليقظة الإسلامية،ومنها الدعوات الإصلاحية التي ظهرت في القرن التاسع عشر ميلادي،ومن هذه المدارس الإصلاحية مدرسة الأستاذ محمد

عبده التي اتخذت من الدعوة إلى الإسلام أساسا ثقافيا،واجتماعيا وسياسيا للنظرية الإصلاحية.

ظهرت مدرسة الأستاذ محمد عبده في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ميلادي،حيث استسلم العالم الإسلامي لضرب من الخمول الفكري والتراجع الحضاري،وران الجمود والتقليد على العقل،وأصابه الجدب الفكري،في الوقت الذي كانت فيه الحضارة الغربية تتطور تطورا مذهلا هيأ لها أن تحكم الحصار على العالم الإسلامي.

وقبل الكلام عن مظاهر التجديد في التفسير عند الأستاذ محمد عبده نقدم بين يدي البحث موجزا يعرفنا بحياة الأستاذ الإمام،والعوامل التي أثرت في تكوينه وأرائه الإصلاحية.

أولا: موجز عن تاريخ حياة الإمام محمد عبده:

ولد الأستاذ محمد عبده حسن خير الله في قرية محلة نصر بمحافظة البحيرة سنة 1849 م-1266 هـ ،ولم يكن أبوه من أهل الغنى واليسر والجاه، بل كان رجلا يشتغل بالزراعة على عادة أهل الريف، ولكنه كان من أهل المروءة والنجدة.

نشأ الأستاذ محمد عبده في جو ريفي بعيدا عن المدن،والنشأة في الريف تعين على الصفاء،وخلوص الفكر.[1]

تلقى تعليمه الأولي للقراءة والكتابة،وحفظ القرآن بالقرية ثم ذهب إلى الجامع الأحمدي بطنطا،ولكن أساليب التدريس صدته عن قبول الدروس فقرر هجر الدراسة وعاد إلى القرية ليشتغل بالزراعة، وفي عودته تزوج الأستاذ محمد عبده،ولكن رغبة والده كانت في أن يعود إلى طلب العلم والدراسة فرجع إلى طنطا،وفي عودته هيأ الله له رجلا صالحا من أخوال أبيه هو الشيخ درويش خضر وكان متصوفا،فعادت إليه الرغبة في طلب العلم،وعاد إلى الجامع الأحمدي.[2]

ثم انتقل إلى الأزهر الشريف سنة 1866 م -1283 هـ، واستمر فيه حتى حصل على الشهادة العالمية، عين بعدها مدرسا للتاريخ في مدرسة دار العلوم، ومدرسا للعلوم العربية في مدرسة الألسن الخديوية، التقى أثناء دراسته في الأزهر الشريف الشيخ جمال الدين الأفغاني وصاحبه عام 1287- 1870م وكان من اقرب المقربين إليه.[3]

عين محررا في الجريدة الرسمية، فرئيسا لتحريرها في نهاية العام،وساعده مركزه على الكتابة فكان في كتاباته يطالب بالإصلاح الاجتماعي والسياسي.

1 الدكتور محمد عمارة، الأعمال الكاملة، دار الشروق، القاهرة، ط1، الجزء الأول، 1993، ص22- 23 .

2 المرجع نفسه، ص24.

3 المرجع نفسه، ص24-25.

كان لملازمة الأستاذ الأفغاني اثر كبير في تحول شخصية محمد عبده،فقد انتزعه من التصوف والاستغراق في التجريد إلى الانصراف إلى معنى جديد وهو التصدي للإصلاح والدفاع عن الإسلام.

وحينما حدثت الثورة العرابية كان له دور بارز فيها على الرغم من انه لم يكن بادي الأمر مقتنعا بهذا الأسلوب في الإصلاح، وعندما فشلت الثورة حوكم مع من حوكم ونفي إلى سوريا، ثم إلى باريس بدعوة من الشيخ جمال الدين الأفغاني،فاصدرا هناك مجلة (العروة الوثقى)، ثم استقر بعد تطواف في بيروت،وكان له هناك نشاط واسع في المساجد والمدارس الدينية.[1]

عاد سنة 1305هـ -1888 م من منفاه، وعين في سلك القضاء وترقى فيه حتى أصبح مستشارا بمحكمة الاستئناف.

ثم صدر أمر بتعيينه مفتيا للديار المصرية،وكان قد تعلم اللغة الفرنسية وهو ابن أربع وأربعين،وقد قام بعد عودته بنشاط علمي واسع في دروسه بالأزهر،وفتاويه في العالم الإسلامي ومحاضراته ومقالاته ومراسلاته،ثم انتقل إلى رحمة الله سنة 1905م – 1323هـ في مدينة الإسكندرية ودفن في القاهرة.[2]

ثانيا: العوامل التي أثرت في تكوين الأستاذ محمد عبده.

كان الأستاذ محمد عبده ذا شخصية قوية، وأخلاقا عالية ويحمل بين أضلعه نفسا كأنها من نفوس الملوك، وهناك عوامل أثرت في هذه الشخصية القوية، وسنقتصر على بعضها فقط ومنها:

العامل الأول:

يعد التقاء الأستاذ محمد عبده بالشيخ درويش نقطة تحول في حياته فبعد النفور من العلم والتعلم إلى حد الهجران، عاد الشيخ محمد عبده إلى طلب العلم من جديد،فالذي وجده الأستاذ محمد عبده عند الشيخ درويش لا تصنعه قراءة المتون المجردة،ولا حفظها،إنما يصنعه الإيمان،فنحن في حاجة إلى البناء النفسي أولا.

العامل الثاني:

كان للشيخ جمال الدين الأفغاني اثر في نمو فكر الأستاذ محمد عبده واتساع مداركه لينظر إلى الحياة نظرة فيها الجدة والواقعية،لا يشوبها الخيال، بل اجتمع فيها روحانية المتصوف،وفكر الفيلسوف،وفقه المسلم.[3]

---

[1] الدكتور محمد عمارة، مرجع سابق، ص30-31.

[2] المرجع نفسه، ص 36.

[3] الدكتور فضل حسن عباس، المفسرون مدارسهم ومناهجهم، دار النفائس، الأردن، ط 1، ج1،2007، ص17.

العامل الثالث:

رحلة الأستاذ محمد عبده إلى البلدان الأوروبية،حيث اطلع على نظمها وأساليب الحياة فيها،والتقدم العلمي الذي وصلت إليه فكان لذلك كله اثر غير خافٍ في منهجه الإصلاحي والعلمي.[1]

هذه أهم العوامل التي كانت لها الأثر الكبير في حياته، والتي طبعت تلك الشخصية،فلا عجب أن تراه يعرف أراء المعتزلة، ويعجب بالإمام احمد،وابن تيمية، ويثني على الأشعري، وينصف الحضارة الغربية في جانبها المضيء والنافع،فقد تعلم لغتهم، وطاف في بلادهم، ووقف عليها بنفسه فرأى منجزات الحضارة الغربية عن قرب فجمع في فكره محاسن هؤلاء جميعا.

ثالثا: منهجه في الإصلاح.

يمكن أن نسجل للأستاذ محمد عبده قبل التقائه بالأفغاني،انه لم يجد طريقه إلى الإصلاح، شأنه شأن كل شاب في مرحلته الأولى يكون مشوشا تائها بين أفكار كثيرة تتجاذبه،ولكن لقاءه بالأفغاني أخرجه من تلك الحيرة ووضعه في الطريق الصحيح .

ويمكن أن نميز مرحلتين من تفكير الأستاذ:

المرحلة الأولى:

يظهر فيها متأثرا بشخصية الأفغاني،وهي لا تعكس إلا تأثير الأفغاني فيه،هذه المرحلة التي يغلب عليها الطابع السياسي رغم أنها لم تخلو من جوانب أخرى، وبكلمة واحدة كان ضلا لأستاذه جمال الدين الأفغاني.

المرحلة الثانية:

نكتشف الأستاذ محمد عبده المفكر والمصلح،وتبدأ هذه المرحلة بعد نفي جمال الدين الأفغاني من مصر،حيث بدأ التحول في حياته ،وبرزت لنا ملامح موقفه المستقل، وتميزت شخصيته الفكرية،ومواقف العملية المتميزة وفي مقدمة هذه الأمور الوسيلة التي يجب اتخاذها لبلوغ الغاية في التغيير،ولهذا يمّم وجهه نحو العمل الإصلاحي القائم على الفكر والتربية.

وقد حدد الأستاذ محمد عبده فلسفته الإصلاحية في أمور ثلاثة وهي:

الأمر الأول: تحرير الفكر من التقليد، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف.

الأمر الثاني: إصلاح أساليب اللغة العربية.

[1] المرجع نفسه، ص18.

الأمر الثالث: التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب وما للشعب من حق العدالة على الحكومة.[1]

كرس الأستاذ حياته لخدمة هذه الأهداف الثلاثة،ورأى أنها الطريق الصحيح لنهضة الأمة وخروجها من نفق التخلف واللحاق بركب الأمم المتقدمة.

رابعا: التجديد في التفسير عند الإمام محمد عبده.

التجديد كما عرفه ابن منظور: تصيير الشيء جديدا، وجدّ الشيء أي صار جديدا.[2] فهو لغة كما هو واضح يشير إلى وجود شيء كان على حالة ما،ثم طرأ عليه ما غيره وأبلاه،وان إعادته إلى مثل حالته الأولى تعد تجديدا، والجديد نقيض البالي المبتذل بالاستعمال.

وشرعا:التجديد في الشرع لا يختلف عن معناه اللغوي وقد جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: " إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها ".[3]

قال الشيخ يوسف القرضاوي: " إن التجديد لشيء ما: هو محاولة العودة به إلى ما كان عليه يوم نشأ وظهر،بحيث يبدو مع قدمه كأنه جديد،وذلك بتقوية ما وهى منه، وترميم ما بلى ورتق ما انفتق، حتى يعود إلى اقرب ما يكون إلى صورته الأولى".[4]

وبهذا المعنى يكون تجديد الدين،تجديد هدايته،وبيان حقيقته وأحقيته،ونفي ما يعرض لأهله من البدع والانحرافات.

والتجديد في بعده الفكري حركة عقلية تلازم الإنسان،لان الفكر الإنساني محكوم بزمانه،وبقدرات الإنسان المحدودة، وعليه فان الفكر الإسلامي يتقادم أو يشيخ،أو يجمد وهذا يؤكد مسلمة ثابتة وهي التفريق بين الإسلام وبين الفكر الإسلامي الذي هو نتاج بشري.

"أما التجديد في بعده الفكري: فهو نشاط عقلي دائب قوامه تقليب النظر باستمرار في المعارف المكتسبة والتجارب الحاصلة بقصد تصحيحها،أو إثرائها وتكييفها مع كل واقع جديد بقدر الحاجة الحقيقية،والمصلحة المؤكدة للفرد نفسه ولبني البشر عامة "[5]

إن مسألة التجديد باتت مسألة تثير جدلا كبيرا بين المفكرين والعاملين لهذا الدين،وقد انقسموا فيها بين مؤيد ورافض، والذين يقولون بالتجديد منقسمون أيضا،في رؤيتهم

---

[1] محمد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، ج1، ص11-12. بتصرف

[2] لسان العرب لابن منظور، ج2، ص202.
ومختار الصحاح لمحمد بن أبي بكر الرازي، ص95.

[3] رواه أبو داود في كتاب الملاحم، ج2، ص209.

[4] الدكتور يوسف القرضاوي، من أجل صحوة راشدة، 1988، ص28.

[5] الأستاذ محمد العربي الخطابي، تجديد الفكر الإسلامي، ندوة نظمتها مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود، ص65.

الفكرية للتجديد وفي شكل التجديد،وفي الآليات والمناهج التي يقوم عليها التجديد، والناس في التجديد اتجاهان وهما:

الاتجاه الأول:

ينطلق من اعتبار الإسلام حلقة أو مرحلة في اتصال السماء بالأرض وفي تطور الإنسان ذاته،واعتبار الأحكام والتكاليف مرحلية كذلك،وان القرآن لم يأت بحلول نهائية للمشاكل العملية التي تعترض الوجود الإنساني،وإنما الحلول التي جاء بها ارتبطت بالزمان والمكان لذلك العصر عصر نزول القرآن،ويرى أنصار هذا الاتجاه: " أن الدين يقتصر على العبادات دون المعاملات وتنظيم التعايش الاجتماعي، أو أن الأحكام المقررة لهذا الجزء الثاني في الكتاب والسنة كانت مرتبطة بالواقع الفكري والاقتصادي والاجتماعي لمجتمع الجزيرة العربية،وباختفاء ذلك الواقع تستحدث أحكام لتنظيم المجتمع المعاصر تلائم أيضا تصوراته الفكرية ونضوجه العلمي وواقعه الاقتصادي والاجتماعي".[1]

وهذا الرأي يقوم على فكرة إبعاد الدين من حياة الناس وعلى انه مرحلة في حياة البشرية،وأصحاب هذا الاتجاه يعتمدون نمطا معينا من التفكير أنتجته الثقافة الغربية الحديثة ابتداء بعصر النهضة.

الاتجاه الثاني:

التجديد يعني التعامل مع مصدري الإسلام الكتاب والسنة،وإحياء مفاهيم الإسلام في الحياة والإنسان،وترك التقليد،واستيعاب التراث بفهم دقيق،ومناهج واعية، " فالتجديد يعني التخلي عن التقليد والتعامل المباشر مع مصدري الشريعة الكتاب والسنة واستيحاء ما بهما من مبادئ عامة،ومقاصد لوضع القواعد التي تنظم المجتمع الإسلامي،وتستجيب لحاجات أفراده المتجددة".[2]

والتجديد بهذا المعنى هو الذي عبّر عنه الأستاذ محمد عبده وبنى عليه فكره الإصلاحي فقال: " تحرير الفكر من التقليد،وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف، والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعه الأولى".[3]

فالتجديد الذي دعا محمد عبده إليه هو التجديد الذي يحفظ للكتاب والسنة قدسيتهما مع عدم الجمود على القديم إلى حد التقديس،" التجديد ليس إحياء آليا لمخلفات الماضي، أو استنساخا بليدا لثقافة الأسلاف،ولا انبهارا ساذجا بالغرب، وقطيعة

[1] الدكتور أحمد الخمليشي، تجديد الفكر الإسلامي، ندوة نظمتها مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود، ص90.

[2] المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

[3] محمد رشيد رضا ، مرجع سابق، ص11.

موهومة مع التراث، ولكنه تجديد لمقولات الفكر القديم، وأطره المعرفية، وإحداث تحول في أصوله الفلسفية،ومبادئه الابستمولوجية"[1]

فالتجديد استمرار للحياة الإسلامية وليس خروجا منها أو عليها، يقول محمد عادل شريح: "من الواضح أن هذا التعريف يستند إلى فهم يقر بصلاحية المنظومة واكتمالها وقدرتها من حيث أهليتها وكفايتها كونها تمثل الشرع الإلهي الذي جاء به النبي المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، ومن حيث شمولها ومرونتها وقدرتها على استيعاب المستجدات وتقديم الحلول والأجوبة المناسبة لكل ما يطرأ في حياة المسلمين".[2]

خامسا: النظرة الجديدة في التفسير.

جعل الأستاذ محمد عبده القرآن الكريم ديدنه في الإصلاح ونادى في المسلمين أن سعادتهم وفلاحهم في الدنيا والآخرة في العودة إلى كتاب الله تعالى،والعمل به،يقول الأستاذ محمد عبده: "إن سبيل الدين لمريد الإصلاح في المسلمين،سبيل لا مندوحة عنها، فان إتيانهم من طريق الأدب والحكمة العارية من صبغة الدين يحوجه إلى إنشاء بناء جديد، ليس عنده من مواده شيء، ولا يسهل عليه أن يجد من عماله أحدا، وإذا كان الدين كافلا بتهذيب الأخلاق،وصلاح الأعمال وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها، ولأهله الثقة فيه ما ليس لهم في غيره، وهو حاضر لديهم والعناء في إرجاعهم إليه اخف من إحداث مالا إلمام لهم به، فلم العدول عنه إلى غيره".[3]

يقرر الأستاذ محمد عبده بهذا الكلام إن الأصل في التغيير إنما هو القرآن الكريم، لما جاء به من هداية، ولما لأهله من الثقة فيه، والارتباط به، والعودة إليه اخف.

وجد الأستاذ محمد عبده بهذه الدعوة نفسه بين تيارين:

- تيار الجمود: الذي يرى في دعوته خروجا عن الدين فهؤلاء عطلوا عقولهم بجمودهم

على القديم،دون تجاوزه أو الخروج عليه،فكانوا بذلك معطلين للنصوص عن العطاء المتجدد.

- وتيار المجددين: الذين يتخذون الحضارة الغربية أنموذجا يحتذى به في نهضة الأمة، بعيدا عن دينها.

---

[1] جمال الدين العلوي، تجديد الفكر الإسلامي، مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود، ط1، 1989، ص130.

[2] الدكتور محمد عادل شريح، فكر التأصيل المنهج والفلسفة، دار الفكر، دمشق، 2010، ص107.

[3] الدكتور محمد عمارة، مرجع سابق، ص248.

إن هؤلاء وهؤلاء يقفون على ارض واحدة هي تعطيل النصوص" فقد جرّت أفكار الأستاذ محمد عبده الكثير من الهجوم عليه وعلى أفكاره الجريئة التي حاول أن يزرعها في بيئة محافظة ولم يفهمها لا المحافظون، ولا المجددون الليبراليون، فهؤلاء ارتأوا فيه نزعة إلى تزييف عقائد المسلمين، وخاصة مبدأ التأويل الذي اعتمده عبده للتوفيق بين الوحي والعقل، والوحي والعلم، والآخرون ارتأوا فيه مسوغا للانفلات من أصول الإسلام، والدعوة إلى نزعة علمانية على النمط الغربي".[1]

فالأستاذ محمد عبده دعا إلى الموائمة بين العقل والنقل في إطار التكامل والتعاضد ولم يكن وقوفه على منهج القرآن والسنة نوعا من الجمود أو الظاهرية في فهم نصوصها، فهو من جهة يعدّ هذا الجمود سببا من ابرز أسباب اختلاف المسلمين وكذلك كان سببا في تخلفهم، حيث أدى الجمود إلى الوقوف على العلوم السمعية وحدها ومعاداة العلوم العقلية، كما أن جمود أهل المعقولات على علوم العقل وتقصيرهم في علوم السمع كان سببا أساسا في إبعاد الأمة عن النهوض الحضاري الحقيقي.

لقد عاصر الأستاذ محمد عبده، بداية النهضة الغربية الحديثة، وتأثر بعلومها ونظرياتها، وحاول جاهدا أن يبين للغربيين أن مبادئ الإسلام لا تتعارض مع العلم الحديث، فتأول بعض الآيات بتفسيرات علمية حتى يقربها من عقول الغربيين، وقد لجأ إلى هذا اللون من التفسيرات تحت إكراهات الواقع، ولمقصد طيب وحسن، فهو يرى أن معجزة القرآن هي في ما حوى من الهداية، فهو كتاب هداية في المقام الأول " ومنذ مطلع هذا القرن ونحن نشاهد مواقف مختلفة في مواجهة المدنية الجديدة، تختلف بين المغالاة والاعتدال والجمود، وتعتبر محاولات مدرسة المنار من أكثرها اعتدالا، وأكثرها بروزا مما جعلها محط أنظار الدارسين".[2]

عندما ذهب الأستاذ محمد عبده هذا المذهب في التأويل أو في تصوره لبعض قضايا الإسلام كان متأثرا ببعض المؤثرات نذكر منها:

1- حالة التخلف التي كان عليها المسلمون.

فالمسلمون كانوا في ضعف شديد، وتخلف في كل المجالات، جعلت المسافة بينهم وبين أوروبا تحسب بالسنين الضوئية، فقد استسلم العالم الإسلامي لضرب من الجمود الفكري، والتراجع الحضاري.

2- التأثر بالحضارة الغربية

تأثر الأستاذ بالحضارة الغربية بعد اطلاعه عليها عن قرب، وساعده في هذا رحلاته إلى أوروبا، واستقراره بفرنسا، وإتقانه اللغة الفرنسية، فاطلع على نهضتها، ورأى

1 الدكتور احمد عبد الرازق، فلسفة المشروع الحضاري، ص399.
2 الأستاذ شفيق شقير، موقف المدرسة العقلية الحديثة، ص109.

تقدمهم وتفوقهم، واطلع على كثير من علومهم، كعلم الأخلاق، وعلم النفس، وأصول الاجتماع الإنساني، والتاريخ، والتربية، وكانت عنايته بهذه العلوم شديدة وكبيرة.

3- قيام نهضة أوروبا على العقل

قامت نهضة أوروبا على العقل، فأبعدت الدين من حياتها، وهذا بعد صراع طويل بين الكنيسة والعلم.

ومن الأمور التي ميزت نظرته الإصلاحية، هي نظرته الجديدة في التفسير، والتي يمكن أن نذكرها في الآتي:

1 - <u>التركيز على الجانب الإصلاحي الاجتماعي:</u>

القرآن الكريم في نظر الأستاذ جاء لهداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور، فهو كتاب هداية في المقام الأول، وقد صنع أمة، فأحياها بعد موت، وعلمها بعد جهل، وجمعها بعد تفرق، واعزها بعد ذل، وقد ركز على إحياء هذا الجانب العظيم لان إعجاز القرآن يكمن في النظم التي جاء بها لبناء الأمة وبعثها من جديد.

2 - <u>الاقتصار على القرآن وحده:</u>

عاب الأستاذ على المفسرين السابقين أنهم اغرقوا تفاسيرهم ببحوث متنوعة في فنون كثيرة، وقفت حاجزا دون الاستفادة من القرآن، وقد غلبت على كل مفسر ثقافته، فمن غلبت عليه العلوم البلاغية، والنحو والصرف، اهتم في تفسيره بالمسائل البيانية ووجوه الإعراب والتصريف، وهكذا، وهذا لا يعني أن هذه العلوم ليست نافعة، وإنما حجبت الغاية التي جاء لها القرآن، وهي الهداية، وتربية النفوس، وتزكيتها.

3 - <u>بيان منهج القرآن في الاستدلال على العقائد:</u>

بين الأستاذ أن طريقة القرآن في الاستدلال على العقائد هي الطريقة الواضحة، وان طريقة أهل الكلام لا يستطيعها إلا نظار العلماء الأعلام، فقال: " الواهمون أن معرفة الله تقتبس من الجدليات النظرية، والأقيسة المنطقية دون الدلائل الوجودية الحقيقية، ولو كان زعمهم حقيقة لا وهما، لكان الله سبحانه استدل في كتابه بالأدلة النظرية الفكرية، وذكر الدور والتسلسل، وغير ذلك من الاصطلاحات الكلامية ...إلا أن لله كتابين: كتابا مخلوقا وهو الكون وكتابا منزلا وهو القرآن، وإنما يرشدنا هذا إلى طرف العلم بذلك، بما أوتينا من العقل.[1]

إن طريقة القرآن في إثبات العقيدة تقوم على توجيه العقل إلى النظر والبحث والتأمل وتحرك القلوب وتصلها بالخالق.

[1] الأستاذ محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ج2، ص64.

4 - ظهور بواكير التفسير الموضوعي:

ينظر الأستاذ إلى النص القرآني على انه وحدة متكاملة، على خلاف المفسرين السابقين الذين كانوا يفسرون القرآن آية آية، وبالتالي يمزقون وحدة الموضوع التي جاءت بها السورة، فللأستاذ يرجع الفضل في رسم فكرة عامة عن السورة وعرض المواضيع التي تعالجها، يقول الشيخ محمد الغزالي: " ثم قرأت تفسيره للقرآن الكريم، ووجدت بواكير التفسير الموضوعي للسورة، كما تشد الأعصاب أجزاء الكائن الحي"، [1] واقتفى اثر الأستاذ في ذلك تلميذه رشيد رضا في إكمال تفسير المنار، واقتدى بالشيخين جملة من العلماء والأجلاء منهم الشيخ محمد مصطفى المراغي، والشيخ شلتوت، والأستاذ محمد عبد الله دراز.

5 - الكلام عن المناسبة في القرآن:

الكلام عن المناسبة في القرآن يعني أن هناك وحدة وتناسقا بين السور، ولتوضيح هذه المسألة نسوق هذا المثال الذي ذكره الأستاذ الشيخ رشيد رضا، وهو يوضح المناسبة بين سورة آل عمران، وسورة البقرة، التي هي قبلها في ترتيب المصحف، وصور الاتصال بينهما، فيقول: "الاتصال بين هذه السور وما قبلها من وجوه، فمنها أن كلا منهما بدئ بذكر الكتاب وشأن الناس في الاهتداء به ففي السورة الأولى – يعني سورة البقرة – ذكر أصناف الناس من يؤمن به ومن لا يؤمن، والمناسب في ذلك التقديم لأنه كلام في أصل الدعوة، وفي الثانية – يعني

آل عمران – ذكر الزائغين الذين يتبعون ما تشابه منه، ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، والراسخون في العلوم الذين يؤمنون بمحكمه ومتشابهه، يقولون كل من عند ربنا، والمناسب فيه التأخير، لأنه وقع بعد انتشار الدعوة" [2] فهناك تناسق بين أجزاء السورة، وكذلك ارتباط ووحدة بين سور القرآن الكريم.

6 - استجلاء حكم التشريع ومقاصده:

نبه الأستاذ في تفسيره إلى أن الأحكام الشرعية ليست مقصودة لذاتها وإنما شرعت لغايات عظيمة، ومقاصد كريمة، فلا بد من الغوص في نصوص القرآن حتى نصل إلى هذه المقاصد والحكم التي جاء بها كتاب الله تعالى، قال الدكتور محمد الصباغ:" نهج في تفسيره منهجا أدبيا اجتماعيا، فكان يكشف عن بلاغة القرآن بأسلوب مشوق جذاب، ويعالج مشاكل المسلمين بما يرشد إليه القرآن، ويتعرض إلى سنن الله الكونية فيبينها، وفي تفسيره استجلاء لحكم التشريع العديدة التي كانت مقصودة من الأحكام الواردة في آيات القرآن".[3] وبهذا الاستجلاء لمقاصد التشريع يصير القرآن قريبا من الناس، حاضرا في حياته.

---

[1] الشيخ محمد الغزالي، علل وأدوية، ص80.

[2] الأستاذ محمد رشيد رضا، مرجع سابق، ص 153.

[3] الدكتور محمد الصباغ، لمحات في علوم القرآن، ص 319.

7 – <u>التنبيه على الأخذ بالسنن:</u>

عمل الأستاذان محمد عبده ورشيد رضا على التنبيه على الأخذ بالسنن الإلهية في النفس والكون والمجتمع فمثالا صعود الأمم وهبوطها خاضع لسنن لا تتغير ولا تتبدل وهذه السنن لا تحابي أحدا، إنما يجري قانونها على الناس جميعا ، يقول الأستاذ في تفسير قوله تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ .[1] : " فالآية بيان لسنة الله تعالى في معاملة الأمم تقدمت أو تأخرت فهو على حد قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً﴾[2] ، أي أن حكم الله العادل سواء، وهو يعاملهم بسنة واحدة، لا يحابي فيها فريقا ويظلم فريقا".[3]

ولعل من أعظم الأسباب التي جعلت امتنا متخلفة ومهزومة هو عدم فقه هذه السنن التي أودعها الله في النفوس والحضارات والأمم.

8 - <u>محاربة الإسرائيليات:</u>

قال الأستاذ محمد عبده: '"إنه يجب الاحتراس في قصص بني إسرائيل وغيرهم من الأنبياء وعدم الثقة بما زاد عن القرآن من أقوال المفسرين والمؤرخين إلا بعد التحري والبحث واستخراج الآثار، فنحن نعذر المفسرين الذين حشوا كتب التفسير بالقصص التي لا يثاق بها لحسن قصدهم، ولكننا لا نعول على ذلك، بل ننهى عنه، ونقف عند نصوص القرآن لا نتعداها".[4]

خاتمة:

حاولت مدرسة الأستاذ محمد عبده أن تجدد الفكر الإسلامي، وان تجد إجابات لواقع امة متخلفة، وتحت ضغط حضارة غربية مهيمنة، وقد قامت دعوته الإصلاحية على الدعوة إلى أصول تفكيرنا الأولى، والعمل على إعادة فهمها بمناهج جديدة وإعادة صياغة المحتوى بما يتناسب مع مشكلات العصر والبيئة الفكرية، وكذلك محاولة التقليد والجمود، وفتح باب الاجتهاد، فهو الذي يحفظ خلود الشريعة، وصلاحيتها لكل زمان ومكان، وحتى يستوعب الإسلام الوقائع المتجددة، ويواجه كل البيئات.

وقد حفظت المدرسة للنصوص صدارتها وقداستها، وللعقل منزلته في معادلة متوازنة، ضمنها الأستاذ محمد عبده رؤيته التوفيقية بين الدين والعقل.

---

[1] سورة البقرة، الآية 61.

[2] سورة النساء، الآية 123

[3] الأستاذ محمد رشيد رضا، مرجع سابق، ص336.

[4] المرجع نفسه، ص325.

ومن الإنصاف أن ننظر إلى المدرسة الإصلاحية من خلال ظرفها التاريخي، والمشكلات والتحديات التي واجهت الفكر الإسلامي في حينها، ودورها في الذود عنه، أما النظر بعدما انتهت إلى تجريدات ذهنية بعيدة عن الواقع، فأمرٌ قد يكون فيه كثير من التجني.

وهؤلاء المجددون لم يرزقوا العصمة من الخطأ حتى لا ينتقدوا، ولكن لا نستطيع أن نقول إنهم تعمدوا مجانبة الحق، ومكافحة الصواب عن سوء نية، وإنما غاية ما يقال أنهم اجتهدوا فاخطأوا.